مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية

المجلد11 / العدد:02 (2021)، ص 1176-1187

ظلال الأدب الشعبي والثقافة الشعبية على التنمية الاجتماعية

Shades of popular literature and popular culture on social development

Nuances de la littérature populaire et de la culture populaire sur le développement social

1* - د. عبد العزيز بوشلالق 2 - د. سويسي نصيرة

1 – جامعة محمد بوضياف المسيلة

abdelziz.bouchelaleg@univ-msila.dz

2 - جامعة محمد بوضياف المسيلة souisi.nassira@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام:2019/12/13 تاريخ القبول: 2020/06/19 تاريخ النشر: 2021/12/28

الملخص باللغة العربية :

ترتبط الثقافة الشعبية بالأدب الشعبي مما يتركها تحدث أثرا على السلوك والعلاقات الاجتماعية وبالتالي تساهم في التنمية الاجتماعية. حيث لا تعني الارتباط بـ التراث ومجموعة العادات والتقاليد لدى جماعة معينة فقط، لكنها تحدث أثرا في جوانب حياة الإنسان، لأنها في حقيقة أمرها لا تنطلق من معطيات مرتبطة بتراكم المعرفة والمعلومات ، وتنطلق على ما تحدثه في الوسط الاجتماعي من مواقف حية ومتحركة.

كل ذلك يجعلها مساهمة في التنمية الاجتماعية ، وذلك بأدوات التعبير التي يتخذها الأدب الشعبي وسيلة فعالة للوصول إلى هذا الهدف. كما تمثل مصدرا لسيرورة التطور، وطريقا للتقدم والازدهار، وذلك من خلال استدعاء الماضي وجزئيات التراث. لينطلق الإنسان في ترسيخ أفكاره وتصوراته على أرض الواقع، في قوالب سلوكية وعلائقية، وفق ما تمنحه الثقافة الشعبية من قدرة على التفكير، وتتركه متميزا وقادرا على النقد والالتزام الأخلاقي والقدرة على الاختيار.

كلمات مفتاحية: الثقافة الشعبية . الأدب الشعبي . التنمية الاجتماعية . جزئيات التراث .

Résumé:

La culture populaire est liée à la littérature populaire, ce qui la laisse avoir un impact sur le comportement et les relations sociales et contribue ainsi au développement social. Il ne s'agit pas de l'association avec l'héritage et l'ensemble des coutumes et traditions d'un groupe particulier, mais il

* المؤلف المرسل: عبد العزيز بوشلالق، الإيميل: abdelziz.bouchelaleg@univ-msila.dz

a un impact sur les aspects de la vie humaine, parce qu'en fait, il ne part pas de données liées à l'accumulation de connaissances et d'informations, et est basé sur les attitudes vivantes et émouvantes qu'elle crée dans l'environnement social.

Tout cela en fait une contribution au développement social, avec les outils d'expression que la littérature populaire prend comme un moyen efficace d'atteindre cet objectif. C'est aussi une source de développement, un chemin vers le progrès et la prospérité, à travers la convocation du passé et la partialité de l'héritage. Que l'homme commence à établir ses idées et ses perceptions sur le terrain, dans les stéréotypes comportementaux et relationnels, en accord avec la capacité de la culture populaire à penser, et le laisser distingué et capable de critiquer, l'engagement moral et la capacité de choisir.

Mots-clés : Culture populaire . Littérature populaire . Développement social . Particules d'héritage

Abstract:

Popular culture is linked to popular literature, which leaves it having an impact on behavior and social relationships and thus contributes to social development. It does not mean the association with inheritance and the set of customs and traditions of a particular group, but it has an impact on aspects of human life, because in fact it does not start from data related to the accumulation of knowledge and information, and is based on the living and moving attitudes it creates in the social environment.

All of this makes it a contribution to social development, with the tools of expression that popular literature takes as an effective means of reaching this goal. It is also a source of development, a path to progress and prosperity, through the summoning of the past and the partiality of inheritance. Let man begin to establish his ideas and perceptions on the ground, in behavioral and relational stereotypes, in accordance with the ability of popular culture to think, and leave him distinguished and able to criticize, moral commitment and ability to choose.

Keywords : Popular culture. Popular literature. Social development. The inheritance parts.

مقدمة:

الأدب الشعبي فرع مهم من فروع المعرفة الإنسانية، يعنى بمظاهر الحضارة لشعب من الشعوب. وبسبب تعد د المعايير التي ينطلق منها . له معايير ثقافية متعددة، تدخل ضمن الحقل المعرفي والاجتماعي، لأنها تنتمي إلى حياة الطبقات الريفية وثقافتها، من خلال المعايير النفسية والاجتماعية ، التي تنطلق منها، وترتبط عمو ما بالثقافة الشعبية تبعالهذه المعايير، حيث يخضع الإنسان، بوصفه

حاملاللثقافة، في تفكيره أو شعوره أو تصرفاته لسلطة المجتمع والتراث. وهي تنقل المعرفة الاجتماعية من الأب إلى الابن، ومن الجار إلى جاره، وميدانهما - أي الأدب الشعبي والثقافة الشعبية - العادات والمعتقدات والمعارف والفنون الشعبية فضلاعن الثقافة المادية . مما تتطلبه الحياة الريفية أو البدائية من حرف ومقتنيات أ و منتوج لضرورات الحياة اليومية.

الإشكالية: إن إشكالية هذا المقال تبحث في السؤ ال المعرفي التالي: هل تتحد الثقافة الشعبية والأدب الشعبي في المنظور الفكري والمعرفي؟ مادام لهما أثر اجتماعي في كونهما مصدر ي المعرفة الشعبية والمعتقدات التقليدية للحضارات التي ليس لها لغة مدونة، والتي تتناقل من جيل إلى جيل بالطريقة الشفوية. وهذه المعرفة، مثلها مثل الأدب المدون، تتألف من أنواع السرد النثري والشعري، والقصائد، والأغاني، والأساطير، والطقوس، والألغاز وغيرها.

الأهداف: ارتباط الثقافة الشعبية بالأدب الشعبي يفرض علينا تحديد الهدف من ذلك، وهو تبيين ما يحدثه كل واحد منهما على السلوك والعلاقات الاجتماعية ومساهمتهما في التنمية الاجتماعية، لأن الثقافة لم تعد تعني فقط التراث ومجموعة العادات والتقاليد لدى جماعة معينة كما كانت تشمل الأعمال الفنية لهذه الجماعة، بل توسع المفهوم حتى أصبحت الثقافة تتعلق بكل جوانب حياة الإنسان، لكن لا يصح أن ننظر إلى الثقافة كمجرد معلومات وتراكم للمعرفة، بل هي مجموعة من المواقف الحية والمتحركة.

1 - علاقة الأدب والثقافة الشعبيين بالبعد الاجتماعي:

ترتبط التنمية الشاملة بالأدب والثقافة الشعبيين. كونهما المصدر لكل تقدم والينبوع لكل ازدهار، وليسا بالتالي نتاج أو إفرازات هامشية للتنمية. لأنهما يرتبطان سريعا بالتراث والماضي وما يخلف ذلك من صعوبة في تحديد الزمن التاريخي. كما أنهما يمنحان الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، وذلك بجعله كائنا يتميز بالإنسانية المتمثلة والقدرة على النقد والالتزام الأخلاقي. وعن طريق الثقافة نهتدي إلى القيم ونمارس الاختيار، لأنها وسيلة الإنسان للتعبير عن نفسه والتعرف على ذاته والبحث من دون ملل عن مدلولات جديدة وحالات إبداع(انظر ميشيل تومبسون وآخرون،1997،ص223.) فيما يمكن أن يستلهمه من مقومات استطاع أن يمتلكها، في سياق تكوين شخصيته، تمكنه من الاندماج داخل المجتمع، وفق قدرته على التفكير ومن ثم إطلاق الأحكام وفق المفاهيم المستفادة من مختلف هذه التكوينات وهذه القيم.

وبما أن الإنسان المثقف هو المصدر وصمام الأمان لنجاح عملية التنمية، فإن الانتقال من حالة التخلف واللاوعي إلى مرحلة الانتماء إلى روح العصر مع كل ما تحمله تلك الروح من قيم روحية وأخلاقية. تعد أمرا ضروريا لامناص عنه. وضرورة يقتضيها العصر حيث (يذهب الأنتروبو لوجيون الأوروبيون إلى أن الثقافة الشعبية في أوروبا هي ثقافة ذات طابع قديم. والثقافة الشعبية ليست هي

الثقافة التي خلقها الشعب، وإنما هي تلك التي قبلها الشعب وتبناها وحملها. وعبر عنها الأدب الشعبي بمختلف أشكاله التعبيرية والإشارية) (إيكه هولتكرانس، تر: محمد الجوهري وحسن الشامي، 1973،ص158.) بهذا المعنى تكون الثقافة الشعبية متوارثة، مما تركه الإنسان القديم، في تعامله مع البيئة المحيطة به، و الوسائل التي سخرها في مجابهة متطلباته الحياتية اليومية، وكذلك فيما يعترضه من مفاجآت الطبيعة، وما بادل ذلك من إحساس بالخوف، واتخاذ وسائل الحماية المناسبة، ليعيش في أمن وأمان، حتى ولو كان مؤقتا. وهو ما يترك الثقافة الشعبية ملكا مشاعا، تستفيد منه الناكرة الشعبية، وتوظفه كقيمة، في وسائل التعبير المختلفة، ومنه يرتبط ارتباطا وثيقا بالأدب الشعبي، الذي ينقل الصورة والإحساس من فرد أو مجموعة إلى أخرى.

تمثل مجموعة الثقافة والمجتمع والإنسان مثلثا متساوي الأضلاع، يعبر كل ضلع منه عن بعد قيمي داخل المجتمع، ولا يمكن أن يستغني أي ضلع عن الآخر. وما دامت الثقافة قريبة من الحياة الاجتماعية، فهي ألصق في البعدين بالأدب الشعبي الذي يعبر عنهما، في المعاني التي يتخذها في قوالبه التعبيرية المختلفة. المقصود هنا التعرف إلى كيفية تطوير الثقافة ورفع مستواها واستثمارها في سبيل تحقيق التنمية الشاملة، لأنها تهدف إلى البحث عن كيفية جعل الثقافة ركيزة مهمة من ركائز التنمية الشاملة، لأن للثقافة أهدافا تنموية نبيلة لابد من رعايتها وإرساء دعائمها في المجتمع المدني العصري. وأهم تلك الأهداف النبيلة إعداد الإنسان وبناؤه بناء معنويا. لأن (علماء الاقتصاد يقرون بأن التنمية الاجتماعية إما أن تكون شاملة أو لا تكون. فلم يعد من باب الصدفة أو الاستعارة أن نتكلم عن التنمية الثقافية كعامل مهم من عوامل التنمية الشاملة)(عبد الغني عماد، 2006، ص27و28.) لأن المجتمع تحكمه عوامل ثقافية كثيرة، تساعد من جهة على تكوين شخصية أفراده، وذلك بغرس مختلف القيم التي تم توارثها، ولتكون بمثابة الحافز والقانون الذي يسير على هديه الفرد، ويحفزه على أداء مختلف الأدوار المنوطة به داخل المجتمع. مما ينعكس على تطوير القوالب التعبيرية، وذلك لتحقيق النهوض بالمجتمع، ومنه تتحقق التنمية الشاملة.

يستدل مما تقدم أن العلاقة بين الأدب وثقافته الشعبية من جهة والتنمية الاجتماعية من جهة ثانية هي علاقة عضوية، يكون دور الثقافة فيها أساسيا. فتحسين ظروف العيش الإنساني لم يعد يترجم فقط من خلال زيادة المدخول، بل يفترض تحسينا مستمرا لنوعية الحياة نفسها، كما يفترض تطلعا إلى قيم جديدة. (فكل المعايير المادية وغير المادية للشرائح الاجتماعية العالمية يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار حتى يتم احتواء كل وجوه التنوع والتعددية الموجودة في العالم الثالث) (ميشيل توماسيللو، 2006،ص22.) لأن كثرة المنتوج، وتطوير آليات تحصيله تصبح عديمة الجدوى، إذا لم يعرف الفرد قيمتها ، مثلما يعرف حقيقة وجوده الإنساني، لأنه لا يعيش لذاته، وفق الحيوانية الغريزية فقط، بل يترقى في ذلك إلى الإحساس بقيمتها في نفسه، وفي الآخرين، فمثلا الأكل كقيمة، لم يعد مجرد وسيلة

لسد الجوع، بل تطور في المفهوم الإنساني وأصبح قيمة فنية ومعنوية، يشعر فيها الفرد بنفسه، ويشعر بمن حوله، كما يشعر بالمحتاجين ، فنحن مثلا حينما نقدم الطعام إلى محتاج من أيدينا فقد سددنا جوعته، ولكن حينما نقدمه له في آنية خاصة، وبطريقة مهنبة، فهو يشعر بالسكينة، وكأننا نبادله إحساسا راقيا، مع أننا في الحالتين نقدم طعاما لمحتاج.

فمن جهة تهدف التنمية الاجتماعية إلى جعل الإنسان وعاء معنويا لكل القيم الثقافية الشعبية لأنه يسير ويشارك وينفذ هذه القيم في تعاملاته الاجتماعية المختلفة، سلوكا ومعاملات. وهو (مليء بالمشاعر والأحاسيس والأفكار والمعتقدات والمواقف والاجتهادات والتطلعات والرغبات. وهذا كله يشكل عوامل حاسمة في عملية تسيير التنمية وتوجهها في هذا الاتجاه أو ذاك, أو في هذا المجال الاجتماعي أو ذاك الخ) (ميشيل تومبسون وآخرون،1997،ص176) ومن جهة ثانية تكون صيغ الأدب الشعبي وأدواته حاضرة في الموقف، لنقل كل المجريات والتعبير عنها. وهذا التجاوب بين الموقفين هو الذي يساهم في إرساء دعائم التنمية الاجتماعية، وسهولة انتشارها داخل المجتمع. لأن الصيغ الثقافية، التي يتخذها الأفراد في تعاملاتهم اليومية، كأدوات تعبيرية تحتم هذا الترابط.

إن الثقافة تقوية لأشكال التغيير الثقافي، ونشرها عن طريق توفير الظروف المناسبة للإنتاج وللإبداع وتوفير الظروف لامتلاكها. وبذلك تكون إحدى المعطيات الرئيسة، إن لم نقل الأساس لكل سياسة تنموية، واجتماعية واقتصادية أو تكنولوجية علمية بحتة. فهي لا تنشأ من العدم وليست محكومة بالجمود والثبات. لأنها تحمي لنا القيم الأساسية التي نؤمن بها، وتمكننا بالتالي من التعرف إلى ذواتنا، ومعرفة الذات تمكن من السير في طريق التطور والتحديث،(فالمطلوب أن يكون عندنا ثقافة متجددة تؤمن لنا المشاركة الحضارية في المجتمع الإنساني) (أنطوني جدنز،2008، ص80) لأن تجدد الثقافة يترك الإنسان متصلا بين الماضي والحاضر، فيأخذ من الماضي ما يستطيع أن يعرف به خبرات الماضي، والمعاناة التي عاناها أسلافه، في الوصول إلى تطوير هذا العلم أو هذه الوسائل، لتكون حوصلة ثقافية، يبني بواسطتها حياته. وبالمقابل يطور وسائل حياته التي يحياها، حتى يندمج مع متطلبات العصر، وفي ذلك انسجام وتكامل.

2 - مرتكزات الثقافة الشعبية :

من الموضوعات الأساسية لدارس أي مجتمع محلي أن يتعرف على حدود هذا المجتمع في وعي أبنائه، ويتحدد الإطار والبحث في أصل النشأة والأصل التاريخي الاجتماعي لذلك المجتمع المحلي، والتعرف على شكل النسيج الذي صنع منه هذا الأخير، وذلك بالتعرف على شبكة علاقات القرابة بين أفراده، لإحداث التفاعل الاجتماعي بينهم، في شكل نسيج محكم، يتم فيه التعاون بينهم. لأنها في الأصل عملية اجتماعية ثقافية تنفذ إلى كل مجالات النشاط الإنساني، ولذلك تتنوع أشكالها وطبيعتها بتنوع الحياة

الإنسانية. فعلى الرغم مما أحدثته ثورة المعلومات من تغيير كبير في حياة الإنسان، حيث عرفت تقسيم العمل والتخصص الاجتماعي، وظهور الوعي بالفكر الثقافي ونشأة الوحدة الاجتماعية الكبيرة للمجتمع المحلي. (يرجع الباحثون الأنتروبولوجيون إلى عامل القرابة كمؤشر لقوة التكتلات الريفية في المدن على صعيد الجوار السكاني وأنشطة تدخل القرابة لحماية الأقارب، والتوسط لمساعدتهم في تمشية أمورهم المختلفة) (قيس النوري، 2006،ص87) لذلك نجد في الأرياف خصوصا وكذلك في بعض المدن يتنادى القوم على أساس القرابة ، فيشكلون تجمعات سكانية، أو حتى أحياء، تعود في غالبها إلى جد واحد، لأن الموروث الثقافي، غرس في نفوس الناس الارتباط القبلي، وهذا ما نلاحظه في المجال الاجتماعي والسياسي كذلك، ففي فترة الزواج أو المنازعات والخصومة، يلجأ الفرد إلى عشيرته، ليتقوى بها في هذا الشأن، وحتى في المجال السياسي، يلجأ المترشح، مهما كان مستواه الثقافي، فإذا لم يكن له حاضنة قبلية شعبية، فإنه سوف يخسر هذه الانتخابات. لأن الموروث الثقافي مستحكم كالعادة أو أكثر منها.

لذا كان المجال الثقافي في الأدب الشعبي واضحا باعتباره موقع صراع متواصل بين استراتيجية الفرض الثقافي وتكتيكات الاستخدام الثقافي أو الاستهلاك، الأمر الذي يتطلب من الناقد الثقافي التمييز بين الإنتاج الرسمي والإنتاج الشعبي المودع في عملية الاستغلال. وإذا كان الواقع يتناول بداية عملية صنع الثقافة، فإن نظرية الهيمنة والغلبة تؤكد على وجود حوار دائم بين الجانبين في المتوارث وما هو موجود في الواقع. لأن الثقافة الشعبية هي مجموعة من الخصائص والصفات التي تحدد للإنسان نوعا متميزا من السلوك، يقوم على مجموعة من القيم والمثل والمقومات، يرثها ويتمسك بها ويحرص عليها. ومادام الأدب الذي يصدر عن الشعب يعبر عن وجدانه ويعكس اتجاهاته ومستوياته الحضارية. فإنه يتصل بمجموعة من الأشياء الأصيلة والعريقة، كالموسيقى أو أغاني المناسبات والأزجال والأمثال والحكايات، وغيرها من الفنون الشعبية الأصيلة التي تعتبر بمثابة وثيقة تاريخية. لا توجد في الكتب ولا في أقدم الوثائق التاريخية

قد تستعمل كلمة فلكلور للدلالة على الآثار الشعبية القديمة، التي تمتاز بالشفاهية والتلقائية والبساطة والإيقاع، ويلعب دورا مهما في المجتمع، فهو يؤدي وظائف متعددة، من بينها: الوظيفة الاجتماعية، وأهمها خلق قوالب انفعالية وسلوكية تعين المجتمع على الاحتفاظ بتماسكه. كما يؤدي وظيفة تربوية، كتربية الأجيال على حب الوطن والتمسك به، عكس العولمة، التي أصبحت تغزو العالم، وتهدد الكيانات الثقافية للمجتمعات. لذا كان التراث الشعبي جوهرة ثمينة يغطيها الرماد، فهو بحاجة ماسة إلى العناية والدراسة للكشف والتوصل إلى معرفة عقلية حق ندرك المعاني والأهداف والأماني والآمال التي يطمح إليها الشعب. كما أنه يشكل مجموعة من نماذج التعبير الشفوي ومصدرا من أهم مصادر التراث العالمي، لما تتضمنه من معطيات اجتماعية وتاريخية، تربوية ونفسية،

وما تحمله من قيم أخلاقية، وتعليمية، استعملها الإنسان منذ القديم لتوعية المجتمع والتخفيف من آلامه المرتبطة بالضغوطات الاجتماعية والنفسية. إن الاهتمام بمقومات الأدب الشعبي من أهم انشغالات الدارسين للتراث الشعبي، خوفا من ضياعه واندثاره، وذلك بإعادة إنتاجه حق يؤدي دوره التعليمي والتثقيفي، وما يحمله من أدوات ووسائل في تنمية الخيال، والدور التربوي والأخلاقي وكذلك اللغوي. والأهم من ذلك دوره في توثيق العادات وممارسات شعبية، فهي بذلك تعد وثيقة مهمة لمعرفة صفات الشعوب) (انظر، نبيلة إبراهيم، 1981، ص54) لأن مجال الأدب الشعبي واسع، يرسم فيه الأديب مختلف الصور واللوحات، التي تعاقبت على المخيلة الإنسانية، وتعطي قراءات مختلفة للأفعال والأحداث التي مر بها الإنسان، عبر الحقب الزمنية المختلفة، وبذلك يكون الأدب الشعبي بمختلف مكوناته، من شعر وحكاية خرافية وألغاز مصادر للثقافة الشعبية، ومرآة عاكسة لما عاشه سابقا، ويحياه حاليا الفرد والمجتمع الإنساني.

وما دامت الثقافة الشعبية ترتكز أساسا على قاعدة المشافهة فهي (مدونة في أفكار الناس وذاكرتهم، وهذا العنصر يمنحها في نفس الوقت تجذرا متميزا يجعل الأجيال تتناقل آدابها جيلا بعد جيل، وكذلك فرصة الإضافات والتغييرات والتشويهات والتحريفات والاحتواءات، ومن هنا تأتي صعوبة البحث للشخص الذي يريد تدوينها أو دراستها) (أحمد خواجة، 1998،ص17) فكل ما يتناقله الناس مشافهة حتما اعتورته بعض التغييرات، وهي طبيعة المشافهة وظروف الناس في النقل، وطرقهم التعبيرية المختلفة. إضافة إلى أنهم يأخذون من المرويات ما يتلاءم مع حالتهم النفسية، وما يلتصق بجوانب الحياة المختلفة، ليكون سفيرهم في التعبير عنها. لكنها في النهاية تبقى محافظة على إطارها الشكلي العام، دون أن تفقد مقوماتها الأساسية.

3 - أثر الثقافة الشعبية في السلوك الاجتماعي:

الثقافة الشعبية وليدة البيئة وثمرة التفاعل بين الأفراد لبيئاتهم. تتعدد تعددا بينا، وتختلف باختلاف البيئات، فمنها ما هو بالغ العمومية والاتساع كتعريفها على أنها طريقة حياة شعب من الشعوب أو هي من نتاج التفاعل الإنساني، وليست كل طريقة من طرق الحياة. وليس كل نتاج من نتاج التفاعل الإنساني ثقافة، لأن الثقافة تقتضي الاشتراك والخصوصية. وهي بمفهومها العام نسيج كلي معقد من الأفكار والمعتقدات والعادات والاتجاهات والقيم وأساليب التفكير والعمل، وأنماط السلوك، وكل ما يبقى عليه من تجديدات أو ابتكارات أو وسائل في حياة الناس . مما ينشأ في ظله كل عضو من أعضاء الجماعة.

تعكس الثقافة الشعبية دور العلاقات الإنسانية والاجتماعية التي تتفاعل فيما بينها نتيجة التعاون الاجتماعي والترابط الأسري والتقارب العائلي، ومن أهمها تلك التي تبنى على أساس الزواج أو الصداقة، وهي علاقات ودية نجدها داخل الأسر، والعلاقات القرابية، وعلاقات المصلحة التي تنشأ

خارج هذا النسيج تتمثل في العلاقات الاقتصادية والسياسية. وهي (تعبير عن غياب الحاكم أكثر مما هي تعبير عن حضور الشعب المحكوم) (منير السعيداني، 2006، ص57) لذا كانت أهم السلوكات التي ترتبط بالحياة الاجتماعية والأسرية كالزواج والعلاقات الأسرية، لأنها من أهم أسس الحياة لما لها من أهمية بين أفراد المجتمع، ولهذا غطت الثقافة الشعبية نماذج عديدة للزواج كالزواج الحر أو الاختياري وما نجم عنه من اضطرابات أسرية في المخيال الجمعي، متمثلا في الحكايات الشعبية التي تعبر عما يحياه الناس في واقعهم وينفرون منه، أو يرحلون بعيدا بخيالهم هروبا من هذا الواقع، حسب طبيعة القبول أو الرفض، لما لها من أهمية في الحياة الإنسانية. حيث أن النسق القرابي في الثقافة الشعبية لا ينتهي عند حدود الأسرة الواحدة، بل يمتد إلى ما هو أبعد، فيشمل فئات اجتماعية أخرى، ويحطم تقاليد القرية وأعرافها، بنوع من التمرد على القيم الاجتماعية المتوارثة أو المرسومة.

4 - أبعاد الثقافة الشعبية في الوسط الاجتماعي:

الثقافة الشعبية هي ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والمعتقدات والفن والأخلاق والقانون والعادات أو أي قدرات أخرى أو عادات، يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع. لذلك يستند العامل الأساسي في تحقيق التقدم الاجتماعي إلى برامج التثقيف للمساعدة على استنباط المشاكل العالقة وكيفية معالجتها عن طريق الثقافة، وكوسيلة لتوسيع آفاق الإنسان. لأنها تصف تنمية المجتمع بمجموعة إجراءات لتقرير الاتجاهات الاجتماعية لدى المواطنين وتشجيعهم على تقبل الأفكار التي تستحضرها الثقافة الشعبية، عن طريق اكتساب المعلومات النافعة والمهارات العملية، بالنسبة إلى الأفراد والجماعات. وهي بالأساس (تعني الثقافات التي تتعارض في منطقها ولغتها وصورها ومحاورها ومراجعها ومقاصدها مع الثقافة العالمة أو الرسمية، وهي كل الثقافات التي تتكلم بلغة العوام وتعكس بناهم الذهنية ورؤيتهم للعالم. وينبني هذا التعارض مع الثقافة العالمة أو الرسمية على شكل التبليغ والتواصل والنقل أكثر من المضمون، ولا يعني هذا أن الثقافة العالمة الملتزمة أو الواقعية أدبا وقصة وغناء وشعرا هي ثقافة شعبية، فالفرق بينهما هو فرق في طرق التبليغ أو أشكال إنتاجه) (أحمد خواجة، 1998، ص19) لأن الفرق بينهما ينحصر في كون الأولى أي الشعبية انطباعية، لا تتخذ المناهج والخبرات العلمية طريقا للتبليغ. بينما الثقافة الواعية أو الرسمية، تتخذ الوسائل والأدوات التي تختبر التطور العقلي، وتبني أسسها على الأهداف المسطرة، التي تريد الوصول إليها، كمخرجات لهذا العمل. لأنها تنتظر منه فائدة على الفرد وعلى الكيان الجمعي.

إن عناصر الثقافة الشعبية تركز في تعاملها مع سلوكات الناس أو تعاملهم فيما بينهم، على القيام بثورة عفوية للوصول إلى مرحلة من الانطلاق الذاتي عن طريق تمكين الجماهير من القدرة على تحليل المواقف ومواجهة المشكلات و الانخراط في العمل الجمعي. لأن غاية الثقافة الشعبية تكمن في إعداد الإنسان المدرك حقيقة وجوده، وتنظيم قدرته على تغيير محيطه نحو الأفضل. (إن هذه

العناصر يجب أن تكون جزءا من الشعب وألا تكون شيئا يتمسكون به لفترة قصيرة من الزمن فقط، ثم يجب أن تكون شاملة الظهور داخل الجماعة الاجتماعية ومتكيفة مع ثقافة هذه الجماعة) (إيكه هولتكرانس، تر: محمد الجوهري وحسن الشامي، 1973، ص238.) وهي تأتي من كل الاتجاهات، فبقدر ما ينتج المجتمع ثقافة، تنتج الثقافة مجتمعاتها بكيفية خاصة .فبقدر تفاعل الأفراد مع بيئتهم، تنمو الثقافة ويتكون المجتمع، وبقدر ما تتراكم الخبرات وتنتقل عبر الزمن ويتم تعديلها والإضافة إليها يكتمل بنيان الثقافة والمجتمع) (عبد الغني عماد، 2006، ص135) فالمجتمعات القديمة توسعت مداركها بالمقاومة والاكتشاف، مقاومة الموجودات من ظواهر ومظاهر الطبيعة، وانعكاساتها على نفسية الفرد والمجتمع، لتكون حصنا يلجأ إليه الإنسان وقت الحاجة، ويتخذه أداة للتعبير عن مكنونات نفسه. لذا حدث التفاعل بين الأفراد في البيئة التي يعيشون فيها، ونمت بينهم هذه الثقافة الشعبية، واكتشاف المجاهيل التي فتحت أعين الناس على حقائق وموجودات، لم تكن في مخيلاتهم، بل زادوا عليها من خيالهم المبدع، فاتخذوها وسائل وأدوات للتعبير عن هذا التفاعل الحاصل بينهم.

تمثل الثقافة الشعبية أهم مرتكزات سلم القيم، التي تعتمد أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية. عن طريق تأسيس الناكرة الجماعية من مختلف أجناس الأدب الشعبي من شعر ونثر، للحفاظ على التراث والقيم الروحية والأخلاقية في إطار المسؤولية الوطنية لتحصين الشباب ضد كل الأنماط الثقافية التقليدية والدخيلة، وتوفير الشروط المسهلة للإنتاج الثقافي والإبداعي, وتعزيز حضور هذه الفئة م ن الشعراء الشعبيين أو من لهم فاعلية في المشهد الثقافي الشعبي،عن طريق تداول مؤثرات هذا الزخم الثقافي الشعبي في التجمعات اليومية الرسمية وغير الرسمية. لأن هذه الثقافة الشعبية هي الوجه الآخر للثقافة الرسمية، وهي تعبير أساسي عن المجتمع في ماضيه وحاضره وأيضا مستقبله، وتمثل الترمومتر (المقياس) المعبر عن إحساس الناس، وهو إحساس يومي وآني، ولكنه يكون مشبعا بميراث الجماعة، وتوجهاتها ، وأيضا هويتها الجمعية، وخاضعا بدرجات لأعرافها وتقاليدها، وهي محددة في أشكال تعبيرية متعددة مثل: القصة، الأسطورة، النكتة، الشعر، الأمثال والحكم إلخ، وكذا في بيانات وتظاهرات سلوكية (حفلات شعبية . رقص . طقوس . ممارسات . ولائم واجتماعات) وهذا ما يسميه البعض بالفولكلور، الذي هو التراث الروحي للشعب، وخاصة التراث الشفاهي وهو أيضا المعتقدات والأساطير والعادات والتقاليد.. والخرافات والأغاني والأمثال؛ مع اختلاف في حدة هذه التظاهرات ووظائفها داخل المجتمع وعلاقاتها مع البنية الاجتماعية العامة. وذلك للتداخل الحاصل بين الثقافة الش عبية والفولكلور، فإذا كانت الثقافة الشعبية أعم من الفولكلور، فإنه يشمل كل ما هو مادي وغير مادي من الموروث، وأيضا يشمل الحديث المستجد لدى شرائح الشعب المختلفة، وكيفية تقبلهم للأفكار والفنون والإبداعات، يلخص في المتوارث الشعبي، بينما تتلخص الثقافة الشعبية في المتوارث والمستجد، وتكون مرآة عاكسة لرؤية طبقات الشعب.حيث (أصبحت الثقافة في

عصر العولمة أكثر قدرة على الانتشار، فانتقال العلوم وحركه المعرفة أصبح أكثر يسرا بما لا يقارن مع ما كان يجرى في القرون الماضية) (سناء الخولي، 1987، ص113) ونتيجة تداخل الصراعات في عصرنا من تيارات العولمة، التي تريد هدم ماهو تراثي، يمكن تعزيز الثقافة الشعبية، عن طريق تدعيم وتمتين الترابطات والعلاقات المتبادلة، التي تميز الحياة الاجتماعية حق نقضي على كل ما يجعل الإنسان في حالة انبهار بالعولمة وتقنياتها، حفاظا على الهوية والثقافة المحلية، و حق لا تحدث فجوة اجتماعية وثقافية، تنسف جسور التواصل بين أعضاء المجتمع. كما تعكس عناصر الثقافة الشعبية تفاصيل تآلف المجموعة الأسرية، وتشير إلى تلاحم أفراد الأسرة الواحدة، لكنها لا تستمر نتيجة الصراعات الاجتماعية المختلفة، مما ينجم عنه نشوب نزاع وتفكك، يؤدي إلى سلوكات منحرفة كالعنف والتفكك العلائقي) (انظر أحمد ديب شعبو، 2006، ص64) لذا وجب الاهتمام بالموروث الشعبي لأنه يربط الفرد بماضيه، ويعطيه حصانة من التفكك الحاصل، نتيجة ابتعاد الناس عن كل ماهو قيمي اجتماعي، ولا يكون ذلك إلا بالاهتمام بالدراسات الأنتروبولوجية، وإدخال هذه القيم والموروثات في البرامج الدراسية، ومحاولة إكسابها طابع الاستمرارية والديمومة، ليشب النشء متشبعا بقيم المجتمع والأسرة، التي بدأ ينسلخ عنها.

التربية وسيط للتغيير الثقافي وإعداد الإنسان عمليا وفنيا، للقيام بدور بالغ الأهمية نحو تحقيق أهدافه كصانع للتغيير، حيث يؤكد هذا المفهوم على التأثير المتبادل بين الأنظمة الفرعية والمؤثرة للثقافة الشعبية، فيساهمان في تشكيل هذه الثقافة الشعبية في الفكر الجمعي للناس، دون أن يكون لأحدهما تأثير على الآخر. كل ذلك ينطلق من أنماط مختلفة، لها دور بارز في تشكيل العلاقات بين الناس، وتضبط سلوكات الأفراد، منها النمط الثقافي القومي، الذي يتشكل من مختلف الأنماط الفردية للمجتمع، مع اختلاف هذه الأنماط. إلا أنها تتماسك فيما بينها لتشكل وحدة المجموع للثقافة الشعبية،(كما يوجد النمط الثقافي العام الذي يشمل عناصر موجودة في كل الأنماط الثقافية العامة، المكونة للثقافة الشعبية، في تشكيل أساسي موحد لمشكلات الحياة السياسية، التي تقف حجر عثرة في طريق الأفراد، مهما كانت بيئاتهم التي يعيشون فيها، وكذا العصر الذي ينتمون إليه. ومهما يكن من أمر تبقى الثقافة مادة خصبة للدراسات الاجتماعية والإنسانية، وذلك لمفهومها الواسع ولفضائها الغني برموزه وبقيمه، ولحضورها الدائم والمستمر في شق الميادين) (سامية حسن الساعاتي، 1983، ص35) وذلك باعتنائها بشؤون الحياة كلها والإلمام بجميع قضايا التاريخ الشعبي، بحيث تصبح المهمة هي الوصول إلى درجة من الرقي في الأفكار العامة المتداولة بين الناس، في شكل حكم وأمثال وأشعار، لتوجيه السلوك الإنساني، والاستفادة من الخبرات والتجارب الدينية والاجتماعية التي تمر الفرد نحو الوجهة الصحيحة.في غنى وازدهار فكري يقود عقل الفرد، للجمع بين الثقافات الشعبية المختلفة والتنسيق فيما بينها، وذلك من خلال صقل الفرد لمواهبه بالمعرفة والعلوم، وممارسة التراث وتمثله في

جوانب الحياة الخاصة والعلمة. لأن مجموع العادات الشعبية الاجتماعية التي يكتسبها الإنسان من المجتمع، كونه عضوا فيه. لأنها تمثل المظاهر الثقافية والاجتماعية المكتسبة. ولأن (المجتمع الحضري نمط متميز مقارنة بنمط المجتمع المحلي، وبحيث أصبحت المدينة تأخذ محتوى ثقافيا خاصا، وتصبح تبعا لذلك متغيرا تحليليا لتفسير هذا المحتوى، بحيث تعتبر الثقافة طريقة للحياة) (عبد العاطي السيد، 2006، ص430) يجد المرء فيها، وبخاصة في الشعبية منها، نماذج جاهزة تحوز على صدقية كبيرة في بيئته ووسطه، كونها شائعة ومعممة، وميزة الثقافة الشعبية أن أكثر أشكالها غير مدون في الكتب، بل محفوظ بشكل مادي" في اللباس، وأشكال الطبخ.." أو في الذاكرة الجماعية " كالأمثال أو لأغاني التي لا مؤلف لها... "وفي القيم والعادات والتقاليد والأعراف والشعائر والطقوس، التي يقع الجميع تحت وطأتها مؤمنا أو غير مؤمن. فالكل مستعد ليتقبل ايجابيا ما يأتي في سياق التقليد القديم مقارنة بما يأتي، عن طريق الشيء الجديد (لأن الباحث لا يستطيع الاكتفاء بالتوجه إلى المكتبة الجامعية لدراسة الثقافة، بل ينبغي عليه أن يهبط إلى حقل الحياة العملية لكي يجمع عناصرها) (عبد الغني عماد، 2006، ص136) وكل ذلك يمكن أن يستمد من العودة إلى الصناعات التقليدية، ومحاولة توظيفها كوسائل ضرورية للحياة، لأن فيها جانبين، الأول محاولة المحافظة على القيم والتراث، والثاني، الاستفادة منها، لكونها أكثر نظافة من الجانب الصحي ، وذلك لقربها إلى الأصل، وإلى الطبيعة البكر، وكل ما كان طبيعيا كان صافيا، لم تشبه شائبة، سواء أكان ذلك في الجانب المادي أم الجانب المعنوي. فإذا ذهبنا إلى أسواق أوروبا مثلا نجد المنتوجات الطبيعية أغلى ثمنا، وأكثر إقبالا من طرف المتسوقين، من المنتوجات المعدلة جينيا أو المعالجة كيميائيا، والشيء نفسه بالنسبة للأدوات المستعملة، في الملبس والآنية وغير ذلك. وهي في جميع الحالات لها تأثير مباشر على نفسية وعقل الإنسان، وكذا في علاقاته بغيره من الناس. وهو ما يدخل في باب الثقافة.

خاتمة :

يستغرق التراث الشعبي مظاهر الحياة الشعبية، بواسطة ما تتناقله الألسنة وتحفظه الصدور وتتسلمه. لأنه يدخل في سياق التعبير عن النفس والأوضاع، ويصور الحياة بتفصيلاتها ووقائعها من خلال أداء مختلف العناصر الشعبية لوظائفها في الثقافة. حتى تضفي شرعية على الممارسات السلوكية، من خلال أدوات الأدب الشعبي وأثرها في الطبيعة الإنسانية المعقدة، في الجانبين النفسي والعقلي، وأثر ذلك على المستوى الاجتماعي سلوكا ومعاملات، وذلك بواسطة الاتصال المباشر بالجماعات الشعبية والمعايشة الفعلية لها، لرسم صورة واضحة عن مظاهر حياتها الاجتماعية والسيكولوجية والفنية. لأن سلوك الإنسان البدائي مزيج من العقلانية والخرافة. إذ يكتسب الإنسان الشعبي نوعا من المعرفة العملية البسيطة، ويستخدمها بطريقة عقلانية لمواجهة احتياجات حياته. ويرتبط كل ذلك بالثقافة الشعبية وأثرها في التنمية الاجتماعية. كما أن ممارسة الجماعة للنص

الأدبي معناه أن تجد فيه ما يعبر عن وجدانها بالطريقة التي تفهمها، وبالتالي يكون الأدب الشعبي هو المعبر عن ذاتية هذه الجماعة المستهدف تقدمها الحضاري والراسم لمصالحها. وعليه تكون نتائج البحث وتوصياته كالآتي:

1 – الثقافة الشعبية قرينة الأدب الشعبي، هي الوعاء التراثي وهو الناطق باسمها.

2 - التنمية الاجتماعية ضرورة ملحة ، تتخذ الوعاء الشعبي مطية لتحقيق مدونة السلوك الفردي، ونظم العلاقات الاجتماعية.

3 – ضرورة توظيف التاريخ والمنهج التاريخي لمعرفة منظومة الثقافة الشعبية، قصد ربط الإنسان بماضيه، وتوجيهه لضبط جوانب حياته المستقبلية.

4 – توجيه الدراسة الأكاديمية لمثل هذه المناطق الشعبية البكر، قصد اكتشافها والاستفادة من ممارساتها الاجتماعية.

المراجع :

1) 1 - أحمد خواجة، الذاكرة الجماعية والتحولات الاجتماعية من مرآة الأغنية الشعبية، أليف منشورات البحر الأبيض المتوسط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، سلسلة أضواء، تونس، 1998.
2) 2 - أحمد ديب شعبو ، في نقد الفكر الأسطوري والرمزي، ط1، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، 2006.
3) 3 - إيكه هولتكرانس، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفلكلور، تر: محمد الجوهري وحسن الشامي، ط2، دار المعارف، القاهرة، 1973.
4) 4 - أنطوني جدنز، الرأسمالية والنظرية الاجتماعية الحديثة، تر: أديب يوسف شيس، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 2008.
5) 5 - منير السعيداني، استحالات الثقافة والمثقف،الطاهر لبيب شاهدا ومشهودا عليه من كتاب الثقافة والآخر، الدار العربية للكتاب، تونس، 2006.
6) 6 - ميشيل توماسيللو، الأصول الثقافية للمعرفة البشرية، تر: شوقي جلال، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، الإمارات، 2006.
7) 7 - ميشيل تومبسون وآخرون ، نظرية الثقافة، تر: علي سيد الصاوي ، (مرجع سابق).
8) 8 - نبيلة إبراهيم، أشكال التعبير في الأدب الشعبي، القاهرة، ط3، دار المعارف، 1981 .
9) 9 - سامية حسن الساعاتي، الثقافة والشخصية، دار النهضة العربية، بيروت، 1983 .
10) 10 - سناء الخولي ، مدخل الى علم الاجتماع، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية ، مصر 1987 .
11) 11 - عبد الغني عماد، سوسيولوجيا الثقافة، ط 1، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 2006 .
12) 12 - عبد العاطي السيد، علم الاجتماع الحضري، ج2 ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2006 .
13) 13 - قيس النوري، الانثروبولوجيا الحضرية، ط2، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، 2006